يعرفون الحرب وقد قال فيهم بعض واصفيهم " انهم على اقصى درجات الامانة والوفاء " واما الاسكيمو الذين وصفوا بغير ذلك فهم من الذين اختطوا من اخلاطهم بالتجار البيض. وقال بعضهم في وصف قبيلة نازلة على ساحل غينيا الجديدة الجنوبي ان رجالها اكثر صدقاً وامانة في معاملاتهم التجارية من الاوربيين انفسهم وان فيهم ميلاً طبيعياً الى الصدق والعدل وفيهم مبادئ ادبية راسخة فيحسبون السرقة جرماً عظيماً جداً وهي نادرة بينهم. وقال آخر في كلامه على احدى القبائل الهندية " ان الهندي صادق امين وندر ان يسرق ولو عرض له اعظم التجارب " وقال مورجان عن قبيلة الاروكوى " ان السرقة وهي ادنى الجرائم الانسانية قلما يعرف لها اثر عندهم "

عظمة اميركا

ان ما يأتي مقتطف من خطبة خطبها حضرة الاستاذ الفاضل بولس افندي الحولي من اساتذة الكلية الاميركية في بيروت على جمعية شمس البر في احتفالها السنوي الاخير في ابريل الماضي. وكان قد سافر الى اميركا في صيف سنة ١٩٠٤ وشاهد كثيراً من دلائل عظمتها وارتقائها الغريب. قال بعد المقدمة في كلامه عن رومية واذا زرت رومية العظيمة وشاهدت خرائبها وآثارها القديمة ودلائل مجدها السالف فلا تقل كما قال الشاعر

" في الدنيا نقول بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركمُ مني ابتسامٌ فقولي مضحك والفعل بكي "

ولا تقف عند قولهم " ان الله يديل الايام بين الانام " بل قل هو الافراط في الشهوات والانغماس في الملذات واهمال التربية في العيال وسوء تصرف المال والضغط على الطبقة المسكينة. هذا ما يدك العمران ويخرب البلدان ويترك الآثار والخرائب شواهد تواطق صوامت

واذا قدر لك ان تؤلف تاريخ قوم فلا تجعل همك سرد الحوادث في اوقاتها فقط بل افسح بين صفحات تاريخك مكاناً لذكر السبب والمسبب واذكر كيف يكون العدل اساس الملك والعلم دعامة العمران وكيف تقوم امة وتسقط أخرى طبقاً لنواميس الطبيعة العاملة في الجماد والحي

واذا بلغت نيويورك لاول مرة فلا اواخذك اذا وقفت حيران تنظر الى ما حولك من مظاهر المدنية الاميركية فلا يأخذ عينك الا الحركة الدائمة — حركة الناس والقطرات

والعربات والمركبات على اختلاف انواعها ومسيالتها وكلها تجري بسرعة لم تألفها عينك من قبل

يسافر الواحد منا الى اميركا وفي رأسهِ صور عنها رسمتها اخباراتهُ الماضية من قراءة الكتب وسماع الخطب ومحادثة الاميركيين والسوريين وغيرهم — صور مهما كانت متنوعة الالوان والخيالات والنسب فلا يمكن ان تنطبق على الاصل لان الخبر ليس كالعيان فضلاً عن ان الناس قلما يحدثون الاَّ ويلوِّنون احاديثهم بالوان عواطفهم . فاذا كان في رأس هذا مثلاً ان الاميركيين كلهم من الطبقة الفاضلة التي يمثلها المرسلون هنا — طبقة اهل العلم والفضل والامانة وانكار الذات فلا يلبث ان يعدل عن زعمهِ هذا لانهُ يرى من المنكرات والمفاسد ما لم يكن يعرف بهِ قبلاً . واذا كان في رأسهِ ان اميركا مهبط العدل والمساواة ورأى فيها تلوُّن المحاكم وتعوج الاحكام وقرأ عن الظلامات الكبيرة التي لم يكن يسمع بها قال في نفسهِ الناس الناس اينما كانوا " وكلنا في الهوى سوا "

واذا كان يعتقد ان اميركا بلاد الغنى والثروة — البلاد التي تفيض ذهباً وفضة وان الناس هناك كبقما ساروا يرون الاموال تنهال عليهم انهيالاً فلا يطول بهِ المطال حتى يغير اعتقادهُ هذا اذ يرى ان تحصيل الرزق في اميركا يقتضي شق النفس وان فيها من الفقراء من يمضي عليهم ايام لا يذوقون فيها طعاماً . وهكذا القول في اشياء كثيرة تسمعها من الناس فتعتقد صحتها حتى اذا اختبرناها بنفوسنا عدلنا عن اعتقادنا الى ما هو اصح منهُ

بلغت نيويورك في منتصف آب (اغسطس) الماضي فاستقبلتنا سماؤها ببروق ورعود وامطار من اهول ما رأتهُ عيناي حتى خلت نفسي في ليل أليل من كانون لا اواسط آب وقلت في نفسي اعوذ بالله من بلاد صيفها شتاء ثم سافرت غرباً الى سنت لوس وشاهدت معرضها العظيم فتمثلت لدي عظمة المال والعلم ثم رجعت عن طريق شيكاغو وشلالات نياغرا وفيلادلفيا الى نيويورك وكنت في كل هذه المدة مأخوذاً بالظواهر ابصر الاشياء ولا ارى ما وراءها شأن كل غريب يرى ما لم يرهُ من قبل

ولكن بعدما اقمت في نيويورك ادرس في احدى جامعاتها المشهورة واسمع خطب اساتذتها واطالع كتب علمائها واتابع حركة الشعب الفكرية كما كانت تتجلى من يوم الى يوم على صفحات جرائدهم ومجلاتهم وفي ملاعبهم وملاهيهم واستقرئ الحوادث واحلل الامور صرت ارى ما وراء هذه المظاهر وتجلى لي نوع من فلسفة هذا الوجود فاحتقرت المدنية الحاضرة لانها تقضي بحق الضعيف لا لانهُ لا يصلح للبقاء بل لانهُ لا يخادع في معاملاتهِ ويظلم الناس كما يفعل القوي

رأيت تنازع البقاء في ميدان التجارة ولم ارَ بقاء الانسب فيها بل بقاء الأدهى فقلت في نفسي لا بد من ان يبدل علماء الاجتماع كلمة بقاء الانسب بكلمة بقاء الادهى . رجعت في تصوراتي الى الشرق وقلت في نفسي متى يتنبه الشرق من غفلته فيرى مقاصد الغرب فيه ومتى يفتح عينيه على اوربا ويرى انها انما تجاسته ليل مأرب منه لا لمجرد الحفاوة تدعته بالزيت ليسهل عليها ابتلاعه لا لتلين اعضاؤه ويقوى . هذا هو عصر الاتجار والمزاحمة الدولية والغربيون يجوبون اقطار الارض لتوسيع متاجرهم ويتخاطفون آسيا وافريقية بداعي تنوير اهلها وادخال المدنية الحديثة اليهم وبئس ما يفعلون

رأيت عظمة اميركا فسألت ما الذي سبب عظمتها . بلاد لم تشتهر بتواريخها ولا بتقاليدها فلا يتصدها السائح ليقف على اطلالها ويدرس آثارها ولا ليزور كنائسها ويتعهد متاحفها . بلاد فسيحة الارجاء غنية التربة كثيرة المعادن والاحراش كبيرة الانهار والبحيرات واسعة السهول عالية الجبال مختلفة الاقاليم اسباب العمران متوفرة منها الى درجة حملت بعضهم ان يقول ان اميركا اعظم من اهلها . ولكن هل السر في المكان ام في السكان ؟ ومن هم سكان اميركا ؟

خليط من كل امة ولسان . من الذين هجروا مواطنهم من اجل حريتهم الدينية والسياسية . من مضطهدي العالم القديم وفقرائه الذين سُدَّت في وجوههم ابواب الرزق . من طالبي الثروة عبدة الاصفر والابيض الذين لا يثنيهم عن مقاصدهم مصاعب واخطار . من الزنوج الذين كانوا عبيدًا فتحرروا . من هؤلاء جميعًا تألفت الهيئة الاميركية وتكوّن جنسية عظيمة قوية بمالياتها وتجارتها وسياستها . هذه الامة الحديثة النشأة مع كثرة المفاسد الجارية فيها قد بلغت شأوًا بعيدًا في الحضارة والعمران حتى صارت في مقدمة الدول الاوربية فما هو سر تقدمها ؟ والجواب ان الاميركيين امة عصامية قامت على مبادىء الاخاء والمساواة والحرية تركت القديم والتقيد بسلاسله واخذت بالجد واستنباط مطالبه . حررت عبيدها وهم اليوم تسع سكانها وجعلتهم مساوين لها في عين الشرع والاحكام . شمرت بانتقارها الى العلم فهبت تطلب افضله من المانيا وانكلترا وفرنسا والحت في تنظيم مدارسها وتربيتها حتى اصبحت انكلترا تنسها في السنين الاخيرة تنفذ اليها البعثات العلمية لتقف على نظامات التعليم والدروس فيها . فتحت بلادها للمرتزقين والمهاجرين فازداد عمرانها وارتقت صناعتها وتجارتها وزراعتها واصبحت اليوم امة كبيرة تبلغ الثمانين مليونًا رائدها الاتحاد وشعارها العمل وحليفها الغنى

في اميركا ترى عظائم الطبيعة وغرائب ابناء الطبيعة . هنالك تتجلى لك عظمة الفكر ومقدرة

القلم وصولة اللسان وسؤدد المال . هنالك يشرف العمل سيف عينيك وتقرأ على السكك والبيوت آية غير مكتوبة بالحروف — آية مؤدّاها انهُ ليس من عار في الاعمال مهما كانت انما العار كل العار ان يكون الانسان بلا عمل وان يكون حمّة يعيش على دم غيره . هنالك ترى كل واحد مندفعاً في عمله يرمي الى الغاية التي في نفسهِ لا يلويه عنها شيء . حتى ان النساء قمن يزاحمن الرجال في اعمالهم وكنّ الفائزات في كثير منها

الشغل قبل اللذات . هذه آيتهم الذهبية . يسعون وراء المال ولا يألون جهداً في تحصيلهِ ولو بطرق محرّمة احياناً لكنهم انما يحصلونهُ لينفقوهُ في الوجوه التي تسرهم لا ليذخروهُ ويعيشوا في الضيق والتقتير . اميركا اليوم في العصر المالي اي ان الامة بأسرها مندفعة وراء كسب المال . هنالك الشركات العظيمة — شركة الفحوم شركة الحديد شركة البترول شركات السكك الحديدية والترام الكهربائي شركات ضمانة الحياة . شركات لاعداد لها وكلها لاحتكار موارد الثروة والاستئثار بها

ومن اهم ما يستخدمونهُ لترويج بضائعهم واعمالهم الاعلانات — وما اكثر تفننهم بها — هذه من غرائب اميركا فانهُ حيثما التفت الناظر او سار يرى منها ما يأخذ نظرهُ اما في الوانهِ او كتاباتهِ او كيفية وضعهِ ومعظم هذه الاعلانات حلقات من الكذب السافر عندهم . يتهمون الشرقي بالكذب والمداهنة ولو انصفوا لقالوا الشرقي يكذب بلسانهِ لان الضغط احوجهُ الى ذلك واما الغربي فيكذب بافعالهِ ويجد سوقاً تجارياً لكذبهِ

واهم الذرائع لنشر الاعلانات ايضاً الجرائد . وهي بكثرتها وسرعة اصدارها وانتشارها ورخص اثمانها ومقدرتها على جمع الاخبار وتركيبها وكيفية قراءة الناس لها من اغرب ما يكون . ففي نيويورك وحدها كثير من الجرائد التي تطبع وتنشر عدة مرات في اليوم وتجمعها من عشر الى اثنتي عشرة صفحة كبيرة وثمنها سنت واحد (مليمان) . ترى باعة الجرائد في كل محطة وموقف وعلى كل زاوية ومجمع ينادون على جرائدهم والناس يشترون وهم ذاهبون لاشغالهم او راجعون منها ويقرأونها لقصر وقتهم وهم في مركبات الترام والقطارات لكن " اقرأ تفرح جرّب تحزن " يصح على كثير من اخبار تلك الجرائد واعلاناتها . الا ان جرائدهم هذه مع خلطها في اخبارها ومبالغاتها في اقوالها وتطرفها في التشيع لاحزابها في عنوان مجدهم وارتقائهم . واطلاقها في مباحثها يجعلها قائدة افكار الامة فلا تسكت عن نقص العمال ومظالم اصحاب الشركات والاحتكارات بل تشنع عليهم وتظهر اعمالهم المجحفة بحقوق الشعب وتشير الى مواقع الخلل وكيفية سدّها